

المصادر الغربية لتاريخ المغرب في العصر الحديث

الأستاذ: الشيخ لكحل

جامعة غرداية ، الجزائر

الملخص:

يتناول هذا البحث تعريفاً بأهم المصادر الغربية لتاريخ المغرب الأقصى خلال أربعة قرون من العصر الحديث؛ أي من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، ويقارن بين توجهات أصحاب هذه المصادر ونظرتهم لتاريخ المغرب، خلال هذه الفترة. كما يعطينا نماذج من هذه الكتابات ونقداً لبعض منها، خلال مختلف قرون العصر الحديث.

Résumé:

Cette recherche porte sur la définition des sources occidentales les plus importants pour l'histoire du Maroc durant les quatre siècles de l'ère moderne, tout du XVI^e siècle jusqu'au XIX^e siècle, et compare les orientations des propriétaires de ces sources et leur vision de l'histoire du Maroc, au cours de cette période. Elle nous donne également un échantillon de ces écrits et des importants critique pour certains d'entre eux, à travers les différents siècles de l'ère moderne.

إنّ الباحث في تاريخ المغرب الأقصى في العصر الحديث يلاحظ أنه يحظى بكم وافر من المصادر المحلية تفوق تلك التي كانت من نصيب الجزائر أو حتى تونس، ويبدو أنّ ذلك يعود إلى الظروف السياسية التي مر بها هذا البلد في العصر الحديث والتي تختلف تماما عن تلك التي كانت في بقية بلدان المغرب. ورغم أنه لم يدخل تحت العباءة العثمانية، إلا أنّ علاقاته مع الدول الأوربية لم تتميز كثيرا عن بقية جيرانه؛ فقد كان في أتون الصراع المير بين الدول المغاربية ودول غرب أوروبا المسيحية. ورغم كل ذلك، فقد كتب عن المغرب الكثير من الأوربيين سواء كانوا تجارا، ديبلوماسيين، رحالة، أو حتى أسرى.

ولهذا، فإنّ المصادرَ الغربية تُعتبر من الوثائق التي لا بد من العودة إليها لكتابة تاريخ المغرب الحديث؛ ذلك أن كتابها عرفوا المنطقة وكتبوا عنها وتطرقوا إلى الكثير من النقاط التي لم يكتب عنها المؤرخون المحليون، ولكن رغم أهميتها إلا أن لها حدوداً لا يمكن تجاوزها لأن لكل عصر ظروف والتزام.

المميزات العامة للكتابات التاريخية في الفترة الحديثة:

إنّ الذين كتبوا في هذه الفترة كانوا جلهم رهبانا أو أسرى أو تجارا لم تخرج كتاباتهم عن مضمون الأدب الملتمزم⁽¹⁾.

كما كانت كتاباتهم تحمل العداء الشديد للمغرب، ورغم هذا فإننا نعتبرها مفيدة جدا؛ ذلك أنها كانت تسلط الضوء على نقاط لا نجدّها في المصادر المحلية، كروض القرطاس لابن أبي زرع، أو مناهل الفشتالي، أو تاريخ الدولة السعدية التكمادرتية. ومع ذلك، فقد كانت هذه المصادر تدعو بشكل صريح إلى محاولة القضاء على نشاط البحارة المغاربة، وإنّ المتصفح لهذه المصادر يجد أنّ كتابها يميلون نظرة مسبقة سلبية عن المغرب لا تخلو من التعصب الديني، والنظرة اللاموضوعية إلى القضايا المطروحة.

ويبدو أنَّ أغلبَ مؤلفي تلك الكتب اتخذوا لها عناوينَ توهم أنها تتضمن عروضا لأطوار تاريخ المغرب، ولاشك أنَّ طائفةً منهم استقوا، خلال مدة إقامتهم بالمغرب، معلوماتهم التاريخية عن المغرب، إما بطريقِ السماع المباشر للشهادات والروايات الشعبية، وإما بنقل ما ورد في كتب من تقدمهم من الغربيين، ولم يشر أي منهم بأنه استفاد من مصادرَ محلية⁽²⁾.

بيد أنَّ محتوى تلك المؤلفات ينمَّ عن جهد كبير بذله هؤلاء، حيث لا يزال البعضُ منها يُعدّ من المصادر المهمة لكل من يبحث في تاريخ المغرب. أولاً: الكتابات خلال القرن السادس عشر

امتازت فترة القرن السادس عشر بالصراع بين الإسلام والقوى المسيحية، وبالمواجهة بين دول المغرب ودول أوروبا المسيحية، كما امتازت هذه المرحلة بظهور التيار الديني المتعصب والذي أثر على إيديولوجيات الأدب والكتابة التاريخية الغربية عموماً.

إضافةً إلى أنَّ الإيديولوجيات التي ظهرت استمدت جذورها من الأحداث الصاخبة في الصراع بين الإسلام والمسيحية. فظهر الالتزام بضرورة مواجهة أوروبا للغزاة المغاربة، والقضاء على خطر الإسلام على المسيحية. ومن أشهر من عُرفوا في هذه الفترة:

1. ليون يوحنا الإفريقي (Leon Jean Africain)

يُعرف بحسن الوزن، ولد بغرناطة سنة 1483م، وتوفي بتونس سنة 1552م. هو رحالة مغربي، بدأ رحلاته إلى بقاع العالم مبكراً، حيث زار مع عمه تمبكتو سنة 1500م، ثم قام بجولة في إفريقيا جنوب الصحراء، شمال إفريقيا، القسطنطينية، مصر، وبلاد الشام، ووصل حتى آسيا الصغرى. وفي طريق عودته من مصر، سنة 1517م، قام قراصنة البندقية بأسره، قبالة سواحل طرابلس. وقدموه إلى البابا ليو العاشر (Lyon X)، الذي قام بتعميده، وسماه باسمه. اشتغل خلال مدة مكوثه في روما التي تجاوزت العشرين سنة، بتدريس اللغة العربية.

حيث قام بإكمال كتاب وصف إفريقيا باللغة العربية، ثم قام بترجمته إلى اللغة الإيطالية، سنة 1525م⁽³⁾.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى مختلف اللغات الأوربية، وأضحى مرجعا لكل من تحدث عن إفريقيا مثل مرمول، دابير، هارتمان، بروننز، وغيرهم⁽⁴⁾.

وقد خصص جزءاً مهماً من هذا الكتاب للممالك التي تعاقبت على حكم مراكش وفاس⁽⁵⁾.

2. مرمول كريخال (Marmol de Caravajal)

رحالة ومؤرخ اسباني، ولد في غرناطة، سنة 1520م⁽⁶⁾، وعاش خلال القرن السادس عشر. رافق حملة شارلكان على تونس سنة 1536م، وتنقل في كامل مناطق شمال إفريقيا، ويبدو أنّ جولاته هذه كانت محل ريب وشك، إذ أسره المغاربة في عهد السلطان السعدي محمد الشيخ، متهمين إياه بالتجسس، فمكث أسيراً في المغرب حوالي ثماني سنوات⁽⁷⁾. يُعد كتابه إفريقيا من أهم المصادر عن المغرب خلال القرن السادس عشر، رغم أنه اقتبس الكثير من كتاب ليون الإفريقي. طبع هذا الكتاب أول مرة سنة 1573م بغرناطة، ثم أعيد طبعه سنة 1599م بمالقة (Malaga)⁽⁸⁾.

3. ديبوقو دي طوريس (Diego de Torres)

مؤرخ اسباني، ولد سنة 1526م، ذهب إلى المغرب سنة 1546م، حيث استقبله السلطان محمد الشيخ السعدي. مكث بالمغرب حوالي ثلاثين سنة⁽⁹⁾، له كتاب تاريخ الشرفاء. نشر بعد وفاته، من طرف أرملته، سنة 1586م⁽¹⁰⁾ ترجم إلى الفرنسية سنة 1636م. يتضمن بالأخص تاريخ السعديين من 1502م إلى غاية سنة 1574م⁽¹¹⁾.

4. تيفيت أندري (Thevet André):

رحالة فرنسي ورجل دين كالفييني، ولد سنة 1502م، توفي سنة 1590م. قام بجولة في أوروبا حيث زار إيطاليا واليونان، كما شملت جولته إلى المشرق كلا من

القسطنطينية والأراضي المقدسة، وكذلك شمال إفريقيا. و وصل حتى البرازيل.
عين سنة 1558م كاهنا لدى الملكة الفرنسية كترين دي ميديسيس (Catherine de Médicis)، ومؤرخا لدى الملك فرانسوا الأول (François I)⁽¹²⁾.

ترك عدة مؤلفات منها:

✓ وصف عام للعالم.

✓ وصف عام للشرق.

✓ الخصائص الطبيعية لفرنسا مقارنة بما يسمى بأمريكا والأراضي والجزر المكتشفة في عصرنا.

وفي هذا الكتاب الذي طبع في باريس سنة 1558م، يتحدث فيه عن ما تتميز به فرنسا عن مختلف المناطق التي زارها، ومنها المغرب⁽¹³⁾.

5. ديبوقو دي هايدو (Diego de Haëdo)

مؤرخ ورجل دين اسباني، توفي في بداية القرن السابع عشر⁽¹⁴⁾.

كان أسيرا في الجزائر في الفترة من 1578-1581م، وبعد عودته من الأسر عُيِّن أسقفا لمدينة فروميستا (Fromesta)⁽¹⁵⁾.

كتب طوبوغرافيا والتاريخ العام للجزائر سنة 1605م، الذي قام بربريغر (Berbrugger) ومونورو (Monerault) بترجمته، ونشراه في المجلة الإفريقية ابتداء من سنة 1870م، كما ألّف كتاب تاريخ ملوك الجزائر، والذي ترجمه إلى الفرنسية دوغرامون (De Grammont) ونشره في المجلة الإفريقية سنة 1880م.

ورغم أننا لا نملك ما يثبت دخول هايدو المغرب، إلا أنّ كتابه الأخير، تاريخ ملوك الجزائر، يتضمن كثيرا من الأحداث التي عرفها المغرب خلال هذه الفترة، خاصة فيما يتعلق بالعلاقات البينية بين الجزائر والمغرب، والحروب التي كانت بين الطرفين خلال القرن السادس عشر.

6. كوريون كولويس (Curion Coelius)

أديب إيطالي ولد سنة 1538م توفي في 24 أكتوبر 1567م،⁽¹⁶⁾ ه كتاب تاريخ مملكة المغرب⁽¹⁷⁾.

7. بدرو دي سالازار (Pedro de Salazar)

كاتب و مؤرخ اسباني عاش خلال القرن السادس عشر (18) ألف كتاب تاريخ الانتصارات الاسبانية، صدر سنة 1570م، وهو يتضمن حروب الأسبان على السواحل المغربية بين سنتي 1546-1565م، مع ملوك فاس وبادس⁽¹⁹⁾.

8. كيبيدو فاسكو موسينو (Quevedo. Vasco-Mousinho)

شاعر برتغالي، ولد خلال القرن السادس عشر، وتوفي بعد سنة 1627م⁽²⁰⁾. كتب ملحمة الملك البرتغالي ألفونسو الخامس، في قصيدة شعرية سماها ألفونسو الأفريقي، حيث تحدث فيها عن انتصارات الملك البرتغالي في العريش وطنجة⁽²¹⁾.

ثانياً: الكتابات خلال القرن السابع عشر

يبدو أنّ القرن السابع عشر لم يختلف عن سابقه في كونه قرن صراع بين المسيحية والإسلام، أو بين الضفتين الشمالية والجنوبية من الحوض الغربي للمتوسط. ولذلك فإنّ أغراض الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن المغرب، في هذا القرن، لم تبعد كثيراً عن الإطار الذي كتب فيه من سبقوهم من القرن السادس عشر. ومن بين كتاب هذا القرن نجد:

1. أديسون لونصلو (Addisson Lancelot)

قس إنجليزي، ولد سنة 1632م، توفي سنة 1703م. ألف كتاب بربريا الغربية، وقد خصصه لتاريخ الثورات في ممالك فاس والمغرب⁽²²⁾.

2. أرموند مصطفى (Amand Mustapha)

رحالة تركي، أو كرغلي، من المغرب الأقصى⁽²³⁾، ألف كتاب رحلات إفريقيا، حيث تحدث فيه عن نشاط شركات الملاحة الفرنسية، على سواحل ممالك

المغرب بين سنتي 1629-1630م، وكذلك معاهدة السلام مع أهالي سلا. طبع في باريس سنة 1632م (24).

3. غالوني يوحنا (Gallonyé Jean)

أصله من مدينة سيرفيان (Servian) على الساحل الفرنسي للمتوسط، عاش خلال القرن السابع عشر. وقع أسيرا في سلا في أكتوبر 1670م، وأطلق سراحه في جويلية 1674م، بعد عملية اقتداء⁽²⁵⁾. كتب مذكراته تحت عنوان قصة أسير، حيث تحدث فيه عن سنوات أسره الأربع في سلا، كما تحدث باختصار عن سلطان تافيلالت⁽²⁶⁾.

4. موييت جيرمان (Mouette.Germain)

رحالة فرنسي، ولد سنة 1652م، وتوفي سنة 1691م. أثناء رحلته من فرنسا إلى جزر الأنتيل، قام القراصنة الجزائريون بأسره في عرض المحيط الأطلنطي، في أكتوبر 1670م، ثم قاموا ببيعه في سلا. مكث أسيرا في المغرب حوالي 11 سنة، حيث تعلم العربية وتعرف على الكثير من عادات وتاريخ المغرب. إلى أن تم اقتداؤه من طرف مؤسسات الفداء في 25 فيفري 1681م⁽²⁷⁾.

كتب مذكرات لسنوات أسره في المغرب التي امتدت خلال حكم السلطانين مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل. كما ألف كتاب تاريخ غزوات مولاي الرشيد ومولاي اسماعيل. الذي صدر في باريس سنة 1683م⁽²⁸⁾.

5. فرانسوا بيدو (François Pidou)

دبلوماسي فرنسي، ولد سنة 1646م، وتوفي يوم 27 سبتمبر 1720م. كلفه الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، سنة 1693م، بمهمة إلى المغرب؛ وذلك بهدف عقد حلف مع السلطان مولاي إسماعيل، لكنه فشل في مهمته⁽²⁹⁾. ألف كتاب الوضع الحالي لإمبراطورية المغرب. والذي يبدو أنه تقرير استخباراتي كتبه يبدو لاطلاع الملك الفرنسي على أوضاع المغرب الأقصى في تلك الفترة. وقد صدر في شكل كتاب في باريس سنة 1695م⁽³⁰⁾.

6. رولان فريجوس (Roland Fréjus)

تاجر مرسيلي، عاش خلال القرن السابع عشر. كلفه الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، بمهمة دبلوماسية إلى سلطان المغرب مولاي إدريس، بهدف إنشاء وكالات تجارية في المملكة. وقد ألف كتاب **قصة دويلات ملك فاس والمغرب** شرح فيه هذه المهمة، كما أنه ضمنه وصفا دقيقا لكل المراكز والتحصينات المتواجدة على سواحل المغرب الأقصى، والتي تعود إلى اسبانيا أو البرتغال، أو إنجلترا، وكذلك تلك التي تعود إلى سلطان المغرب⁽³¹⁾.

7. ويندوس جون (Windus John)

دبلوماسي انجليزي، كان يعمل موظفا في السفارة الانجليزية في فاس، له كتاب **رحلة مكناس** وهو يتحدث فيه عن إقامته لدى سلطان فاس والمغرب في مكناس سنة 1721م⁽³²⁾.

8. بيبس صامويل (Pepys Samuel)

سكرتير البحرية الانجليزية في لندن، عاش خلال القرن السابع عشر. له **مراسلات صامويل بيبس**، حيث يتحدث فيها عن رحلته إلى طنجة⁽³³⁾.

9. بيتي دي لاكروا فرانسوا، (Petis de La Croix François)⁽³⁴⁾.

مستشرق فرنسي، ولد في باريس، سنة 1653م، وتوفي في 4 ديسمبر 1713م. أرسله كولبير (Colbert) إلى المشرق، سنة 1670م، لتعلم اللغات الشرقية، العربية، التركية، الفارسية، وحتى الأرمنية. ومكث في استانبول أربع سنوات منذ 1676م، أين اكتسب خبرة في العمل الدبلوماسي، من خلال عمله في القنصلية الفرنسية. عين سنة 1682م أمين الترجمة للغات الشرقية في قسم البحرية؛ حيث كان له دور في المفاوضات التي تمت بين فرنسا مع الباب العالي، أو مع دايات الجزائر، وملوك المغرب. وقد خلف أباه، سنة 1695م، في وظيفة أمانة الترجمة لدى الملك الفرنسي⁽³⁵⁾.

قام بترجمة عدة مؤلفات إلى اللغة الفرنسية، منها كتاب **ألف ليلة وليلة**، الذي ترجمه من الفارسية. وقد طبع الكثير من هذه الأعمال، إلا أن بعضها لم يطبع

بل ترك مخطوطا في الخزانة الملكية. ومن هذه الأعمال ترجمته لكتاب روض القرطاس لابن أبي زرع، حيث يذكر كاييه (Caillé)، أن بيتي هو أول من ترجم روض القرطاس إلى الفرنسية، إلا أنه لم يطبع، حيث وجده مخطوطا في المكتبة الوطنية الفرنسية، تحت رقم 25.388. وبمعنوان: القرطاس، تاريخ فاس والمغرب. وقد ابتدأ ترجمته في يوم 28 نوفمبر 1693م⁽³⁶⁾.

9. الراهب بيبير دان (Pieres Dan)

هو رجل دين مسيحي فرنسي، عمل في لجان الافتداء بغرض افتداء الأسرى المسيحيين الموجودين في بلاد المغرب. وكانت أول مهمة قام بها إلى الجزائر، سنة 1634م، حيث تمكن من تحرير 42 أسيرا. وقد أصدر كتابه تاريخ برباريا وقراصنتها، سنة 1637م⁽³⁷⁾.

حيث تحدث فيه عن قراصنة سلا من حيث أصلهم وكذلك تاريخهم⁽³⁸⁾.

ثالثا: الكتابات خلال القرن الثامن عشر

امتاز القرن الثامن بظهور تيار فكري نادى برفض الذهنية الموروثة عن القرن السابع عشر، أي إعادة النظر في تقييم الغير، وكتابة التاريخ دون ذاتية وترك الأفكار المسبقة والعصية الدينية.

ومن هذه هؤلاء الكتاب الذين تبنا هذه الأفكار: لويس دو شونيه (Chenier Luis de)، وكذا لوجيي دي تاسي (Laugier de Tassy) الذي انطلق من فلسفة إنسانية تساوي بين البشرية في كامل العالم.

كما امتاز كتاب هذه الفترة بتطور مستواهم الثقافي والفكري؛ فهم لم يعودوا أسرى فقط بل أصبحوا عملاء، رحالة، باحثين، مغامرين ومنهم الدبلوماسيين والبيولوجيين وكذا الوافدون إلى المغرب بمحض الإرادة؛ مثل الرحالة السويدي أكريل اولوف (Agrell Olof) والطبيب الانجليزي لومبيار جورج (Lampière George).

وإن كانت آراء الكتاب الأوروبيين قد تغيرت نحو الاعتدال لدى بعض الذين ذكرنا إلا أنَّ الذهنية الأوروبية مازالت راسخة عند الكثيرين. ومن مؤرخي هذا القرن نذكر:

1. أكريل اولوف (Agrell Olof)

رحالة سويدي، عاش خلال القرن الثامن عشر. كتب رحلته إلى المغرب تحت عنوان الرحلة الجديدة إلى المغرب. وقد ترجم هذا الكتاب من السويدية إلى الألمانية، سنة 1798م⁽³⁹⁾.

2. بريث ويت (Braith Waite Jean)

مؤرخ انجليزي، عاش خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر⁽⁴⁰⁾. له كتاب تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب منذ وفاة السلطان مولاي إسماعيل. حيث تحدث فيه عن الأحداث التي شهدتها المغرب بين سنتي 1727م و1728م. وبما أنه كان مصاحباً للقنصل العام الانجليزي في المغرب، السيد يوحنا روسال (Jean Russel) فقد وثق تلك الأحداث بعدة شهادات⁽⁴¹⁾.

3. بيسنوت دومينيك (Busnot Dominique)

مؤرخ فرنسي، كتب تاريخ عهد السلطان مولاي إسماعيل. وقد تحدث في هذا الكتاب، الذي صدر سنة 1714م، عن ثورات أبنائه، ونسوته⁽⁴²⁾. لكنه ركز على موضوع الأسرى المسيحيين في المغرب، ومجهودات مؤسسات الافتداء بين سنتي 1704-1712م⁽⁴³⁾.

4. لويس دوشونييه (Louis de Chenier)

مؤرخ فرنسي، ولد سنة 1723م، وتوفي في 25 ماي 1796م. زار عدة مناطق في الشرق منها استانبول والمغرب الأقصى؛ فقد ذهب، سنة 1767م، رفقة الكونت دي برونيون (De Brugnion) في مهمة كلّفهم بها الملك الفرنسي لغرض عقد معاهدة مع سلطان المغرب محمد الخطيب العلوي، وبنجاحه في هذه المهمة، عين قنصلاً عاماً لفرنسا في المغرب إلى غاية سنة 1784م⁽⁴⁴⁾.

ألف عدة كتب منها تاريخ الثورات في الدولة العثمانية حتى وفاة السلطان عبد الحميد. أما كتابه أبحاث حول المغاربة وتاريخ إمبراطورية المغرب الذي صدر سنة 1787م، فقد خصصه لدراسة تاريخ المغرب⁽⁴⁵⁾.

5. لوجيي دي تاسي (Laugier de Tassy)

رحالة فرنسي، ولد في النصف الثاني من القرن السابع عشر، كان منتدبا عدة سنوات في قنصلية فرنسا بالجزائر، ثم أرسل إلى هولندا بصفته محافظا للبحرية. وهناك ألف كتابه الشهير تاريخ مملكة الجزائر، حيث نشر مرفقا بخارطة، في أمستردام، سنة 1725م⁽⁴⁶⁾.

لكنه ترجم إلى الانجليزية، في لندن سنة 1750م، تحت عنوان التاريخ الكامل لدول برباريا القرصانية. إلا أن بوير (Boyer de Prebandier) قام بترجمته إلى الفرنسية، سنة 1757م، تحت عنوان تاريخ دول برباريا التي تمتن القرصنة، ويقصد بدول برباريا، الجزائر، تونس، طرابلس، والمغرب⁽⁴⁷⁾.

6. فيلاسكيز دي فيلاسكو (Velasquez de Vélasco)

مؤرخ اسباني، وعضو في الأكاديمية التاريخية لمريد، ولد في مالقا سنة 1722م، وتوفي سنة 1772م. له كتاب وصف ممالك تونس والمغرب⁽⁴⁸⁾.

7. لومبيار جورج (Lampière George)

طبيب في الجيش الانجليزي، عاش خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. كتب رحلته التي قادته إلى المغرب سنتي 1790-1791م، تحت عنوان رحلة داخل إمبراطورية المغرب وإمبراطورية فاس. وقد تضمنت وصفاً دقيقاً لهذين البلدين، بالأخص لجمال الأطلس. كما تحدث في هذه الرحلة عن نظام الحكم و القوانين، والقوة العسكرية للمملكتين وكذلك للعادات والتقاليد، إضافة لتعرضه إلى أوضاع الأرقاء؛ كما عرج في هذا الكتاب على حريم السلطان وما كان يحدث داخل سراياه، بما أنه كان الوحيد الذي لديه الحق في الدخول إلى هذه الأماكن الخاصة، بسبب اشتغاله في تطبيب السلطان وحرمة⁽⁴⁹⁾.

8. أوكلي سيمون (Ockley Simon)

مستشرق انجليزي، ولد في أكسترا، سنة 1678م، وتوفي سنة 1720م. درس اللغة العربية في كلية كمبريدج، عين راعيا لسوافيس، سنة 1701م، ثم رئيسا لقساوستها، سنة 1705م. قضى وقتا طويلا في دراسة المخطوطات العربية في المكتبة البودلية، منذ سنة 1706م، وسمي أستاذ كرسي للعربية في كمبريدج، سنة 1711م. وقد كُلف بترجمة الوثائق الرسمية الواردة من المغرب، سنة 1714م، بغرض عقد معاهدة بين بريطانيا والمغرب. وقد عقدت هذه المعاهدة في جويلية 1714(50).

وقد كتب مذكرات أسير انجليزي مكث طويلا في المغرب، تحت عنوان أوضاع دول فاس والمغرب. وقد صدر هذا الكتاب، في لندن، سنة 1713م⁽⁵¹⁾.
رابعاً: الكتابات خلال القرن التاسع عشر⁽⁵²⁾

إن أهم ما ميز كتابات القرن التاسع عشر هو:

- العودة إلى إيديولوجية القرن السابع عشر.

- كانت معظم تلك الكتابات من طرف ضباط وعسكريين.

- الكثير من تلك الكتابات تمثل مذكرات على شكل يوميات كتبها أصحابها، مثل البارون تايلور (Le Baron Taylor)، وغيره...

تطور نشاط المدارس الاستشرافية في أوروبا، وتأسيس المدرسة التاريخية في الجزائر، ساهما بشكل كبير في تعدد وتنوع الدراسات التاريخية التي تهتم بالمغرب، خاصة اهتمام المؤرخين الغربيين بجمع ونشر التراث المغربي، مثل ما قام به هوداس، وطورنبرغ، ودوكاستري.

وهذا عرض تعريفي، لبعض هؤلاء المؤلفين، وأعمالهم:

1. إليت دي لابريمودي (Elit de La primaudaie)

مؤرخ فرنسي توفي سنة 1876م. قام بنشر كتابه تجارة وبحرية الجزائر في
المجلة الجزائرية والاستعمارية (Revue Algérienne et Coloniale)، سنة 1860م
(53)

ألف أيضا كتاب المدن البحرية للمغرب.

2. دريموند هاي (Drummond-Hay.J)

رحالة انجليزي، قدم إلى طنجة في 15 أوت 1830م، لمهمة شراء بعض
الأحصنة الأصيلة من المغرب لحساب الملكة البريطانية فكتوريا، أما سياسيا فقد
كان غرضه إقناع سلطان المغرب لعقد حلف مع إنجلترا. وقد اعتمد في كتابه
المغرب وقبائله البدوية، على الروايات الشعبية (54).

3. نيف جون بابسييت (Neve.E.-J.-B)

مستشرق بلجيكي، ولد في 13 جوان 1816م. تنقل إلى باريس لدراسة
اللغات الشرقية، حيث تحصل على دكتوراه في الفلسفة و الآداب، سنة 1838م.
ثم عين، سنة 1844م، أستاذا ممتازا للآداب القديمة واللغات الشرقية، وقد عمل
منذ 1860م مراسلا للأكاديمية الملكية البلجيكية. ألف عدة كتب منها:
التاريخ العام للآداب الشرقية. وهي عبارة عن مجموعة من المحاضرات التي كان
يلقيها في جامعة لوفان (55).

قصة رحالة مسيحي في مدينة فاس ومدارسها في النصف الأول من القرن
السادس عشر (56).

4. البارون تايلور سيرفيان (Le Baron Taylor Severin)

رحالة وأديب وفنان فرنسي، ولد في 15 أوت 1789م. ابتداء رحلاته منذ
سنة 1811م، حيث قام بزيارة معظم دول أوربا، وشارك في الحملة على اسبانيا،
سنة 1823م، عندما كان مجندا في الجيش الفرنسي، الذي خرج منه بعد نهاية
الحرب مع اسبانيا. عين سنة 1825م محافظا ملكيا للمسرح الفرنسي، كما تحصل
على الجائزة الذهبية في الفن التشكيلي، سنة 1827م. كما سمي، سنة 1838م،
مفتشا عاما للفنون الجميلة. كلفه الملك الفرنسي، شارل العاشر، بمشروع نقل

بعض الآثار المصرية من الأقصر إلى فرنسا، وقد نجح بعد مفاوضات عسيرة مع الانجليز، في نقل الكثير من الآثار المصرية، بداية من 23 ديسمبر 1833م⁽⁵⁷⁾. وقد ألف عدة كتب منها: الرحلة الرائعة إلى اسبانيا والبرتغال وإلى الساحل الإفريقي من طنجة إلى تطوان. وقد صدر سنة 1832م⁽⁵⁸⁾.

5. هنري دو كاستري (Henry de Castries)

مقدم في الجيش الفرنسي، ولد سنة 1850م وتوفي سنة 1927م. قام بعمل ضخم بجمع مجموعة من الوثائق التي تتعلق بتاريخ المغرب، في مختلف مراكز الأرشيف الأوربية، وقد أصدرها تحت عنوان: 5. مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب (1530-1845م). وقد نشر عدة مجلدات من السلسلة الأولى عن الدولة السعدية، سنة 1905م، حيث بلغ عدد المجلدات التي نشرها حتى وفاته، سنة 1927م، ثلاثة عشر مجلدا من السلسلة الأولى. ثم تابع بعده بيير دوسونيفال، وفيليب دو كوسي، وشانتان دولان فيرون نشر الوثائق المتعلقة بالدولتين السعدية والفيلائية، فبلغ مجموع المجلدات المتعلقة بالدولة السعدية وحدها واحد وعشرين مجلدا⁽⁵⁹⁾.

وقد كتب عدة مقالات في مجلة هسبيرس منها: سادة المغرب السبعة، الأشراف السعديون، فتح المنصور للسودان، رحلة هولندي إلى المغرب⁽⁶⁰⁾.

6. بوريللي جاك (Bourrilly.J)

من الموظفين الفرنسيين في المغرب. كتب عن الطائفة اليهودية في المغرب كتاب إعادة تنظيم المحاكم اليهودية. صدر في باريس 1932م⁽⁶¹⁾.

7. طورنبرج كارل جون (Tornberg Carl Johan)

مستشرق سويدي، ولد سنة 1807م، وتوفي سنة 1877م. تخرج من جامعة لوند دكتورا في الفلسفة سنة 1833م، ومجازا بالأدب العربي سنة 1835م. يُعد من أعلام المستشرقين لما خلف من ترجمات ومنشورات وتحقيقات في الأدب العربي. منها: نشره لكتاب الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع، سنة 1843م، ثم ترجمته إلى اللاتينية، سنة 1846م⁽⁶²⁾.

8. كور. أندريه (Cour André)

مستشرق فرنسي، توفي عام 1945م، أستاذ كرسي العربية في قسنطينة (63). أصدر عدة كتب و مقالات في تاريخ المغرب، منها: كتاب استقرار الدولتين السعدية والعلوية بالمغرب وذكر ما كان بينهما وبين الدولة التركية في الجزائر من خلافات. الذي نشر بالجزائر سنة 1904م. ويعد من بواكير الدراسات المتعلقة الدولتين الشريفتين المذكورتين، والتي اعتمد فيها كور على مصادر أوروبية ومصادر مغربية عربية⁽⁶⁴⁾.

9. مرسيه أرنيست. (MERCIER Ernest)

مؤرخ فرنسي، ولد سنة 1840م، وتوفي سنة 1907م. عمل مترجماً عسكرياً سنة 1865م، ثم مترجماً قضائياً في تنس، أين كان قائداً للجيش أثناء ثورة 1871م. عين رئيساً لبلدية قسنطينة مرتين، سنة 1883م، وسنة 1896م⁽⁶⁵⁾.

اهتم بدراسة تاريخ منطقة المغرب، فألف عدة كتب منها: تاريخ قسنطينة، وتاريخ بارباريا، الذي هو عبارة عن استعراض لتاريخ دول شمال إفريقيا: المغرب، الجزائر، تونس، وطرابلس، من أقدم العصور حتى الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830م. وقد صدر هذا الكتاب في باريس، سنة 1868م.

5. هوداس أوكتاف (Houdas Octave)

هو مستشرق فرنسي (1840-1916م)، أستاذ العربية في الجزائر، فمفتش عام فيها. وقد صنف عدة كتب لتدريس العربية، ثم انصرف إلى دراسة المغرب الأقصى والتاريخ الحديث للمغرب. فاستدعي أستاذاً للعامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس وعضواً في مجلس المعارف العامة، وفي اللجنة التاريخية بقسم تاريخ المغرب.

ترك ثروة هائلة من الأعمال عن تاريخ المغرب؛ حيث قام بنشر وترجمة الكثير من المصادر العربية، منها:

- موجز من كتاب ترجمان المغرب لأبي القاسم الزياني، متنا وترجمة فرنسية، سنة 1884م.

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. للأفراني، متنا وترجمة فرنسية، سنة 1888م.

- تاريخ السودان للتمبكتي، متنا وترجمة فرنسية، سنة 1901م. بمساعدة بنوا (Benoit).

- سلالة الأشراف في المغرب ومزاحمتهم الأتراك على ولاية الجزائر (1509-1830م)، وهو عبارة عن بحث نشره في المحلة الآسيوية⁽⁶⁶⁾.

6. بومييه أوغوست (Beaumier Auguste)

فرنسي من مرسيليا، وفارس في فرقة التشريفات. توفي سنة 1870م، عمل قنصلا لبلده في الرباط وسلا، من سنة 1853-1865م؛ حيث ترجم كتاب الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع للفرنسية سنة 1860م بباريس⁽⁶⁷⁾.

7. شارل فيرو (Charles Féraud)

ولد بمدينة نيس، جنوب فرنسا، في 5 فبراير سنة 1829م، قدم إلى الجزائر سنة 1845م، وعين كموظف صغير بنظارة الداخلية. ثم لم يلبث أن ضُمّ، سنة 1850م، إلى هيئة المترجمين العسكريين، حيث أصبح الترجمان الرئيسي لدوائر الشرطة في مدينة الجزائر. وبعد أربع سنوات من ذلك التحق بخاصة الجنرال ماكهمون، الحاكم العسكري لقضاء قسنطينة آنذاك، فظل في وظيفته حتى سنة 1872م، ثم عين ترجمانا رسميا للحكومة الفرنسية بالجزائر لشدة إتقانه للعربية⁽⁶⁸⁾.

وفي 5 نوفمبر 1878م دخل السلك الدبلوماسي، حيث تم تعيينه قنصلا لفرنسا، خلفا للقنصل ديلا بورت (De la porte) الذي تقرر نقله إلى بيروت. ثم ترقى فيرو إلى درجة قنصل عام ابتداءً من سنة 1881م، و ظل في منصبه بليبيا حتى 31 ديسمبر 1884م، حيث نقل إلى مدينة طنجة بالمغرب الأقصى بدرجة وزير مفوض. وظل ممثلا لفرنسا هناك حتى وفاته سنة 1888م⁽⁶⁹⁾.

أما عن حياته العلمية، فيقول من تكلموا عن سيرته بأنه كان واسع الثقافة، وأنه كان علماً دؤوباً على البحث والتنقيب والمطالعة، ولهذا فقد رجحوا أن يكون من طراز الكتاب العصامين الذين كَوَّنوا أنفسهم بأنفسهم⁽⁷⁰⁾.

وانصبت اهتماماته على كل ما يخص البلدان العربية وشمال إفريقيا، وقد أهله اهتماماته بتاريخ الجزائر ودراسة آثارها الأركيولوجية لأن يصبح رئيساً للجمعية التاريخية الجزائرية قبل أن يلتحق بليبيا بعامين.

وقد أفاده اتقانه للغات العربية والتركية والبربرية في القدرة على الاطلاع على الكتب والوثائق والمخطوطات الاسلامية، لهذا فقد تنوع إنتاجه الفكري؛ بحيث ترك لنا جملة من المؤلفات منها:

- كتابه الضخم: تاريخ مدن بجاية، جيجل، سطيف، بونة، القالة، بوسعادة، برج بوعريريج، عين الدفلة، تبسة، سكيكدة؛ حيث خص كل مدينة بجزء خاص.

- الحوليات الليبية.

- ترجمة تاريخ العدواني.

- تاريخ قبائل عمالة قسنطينة.

- منوغرافيا قصر بايات قسنطينة.

- تجارة العبيد السودان في جنوب الجزائر.

- أشرف المغرب. حيث تحدث فيه عن تاريخ ملوك المغرب الشرفاء⁽⁷¹⁾.

خاتمة:

وخلاصة القول أنّ المغرب الأقصى قد أخذ حظه الوافر من المصادر التاريخية الغربية، مثلما هو الشأن مع المصادر المحلية، وهذا ما أطمأ اللثام عن كثير من المحطات الهامة في تاريخه الحديث. ورغم تنوع هذه المصادر وثراء مادتها، إلا أنّ الباحث يجب أن يتنبه إلى أنها تعبر عن نظرة الآخر إلى المغرب. وإن كانت هذه المصادر تعتبر من الوثائق التي لا غنى عنها في التاريخ المغربي الحديث، إلا أنه يجب أن تؤخذ بحذر ولا بد من مقارنتها بالمصادر المحلية لتحري المصدقية والمطابقة للواقع.

❖ هوامش البحث

(1) معناها التزام الكاتب بفكرة أو مذهب أو توجه سياسي معين، والانتصار له وتسخير كتاباته وأدبه للدعوة إليه.

(2) ليفي بروفنصال: مؤرخو الشرفاء، تع : عبد القادر الخلاّدي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة و النشر، الرباط، 1397 / 1977، ص18.

(3) M. Haofer: **Nouvelle Biographie Générale**, 46 Tomes, Fermin Dido frères fils et C^{ie} Editeurs, Paris, 1860, T31, p432.

(4) Jean Gay: **Bibliographie des ouvrages relatives à l'Afrique et à l'Arabie**, chez maisonneuve et C^{ie} , Paris, 1875, p24.

(5) Guy Turbet-Delof: **Bibliographie Critique du Maghreb dans la littérature** française 1532-1715, S.N.E.D, Alger, 1976, p35.

(6) Jean Gay: op.cit, p34.

(7) M. Haofer: op.cit, T33, p866.

(8) Jean Gay: op.cit, p35.

(9) ديقو دي طويرس: تاريخ الشرفاء، تر: محمد حجبي ومحمد الأخضر، شركة المدارس للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، 1988، ص06.

(10) Jean Gay: op.cit, p90.

(11) Turbet-Delof: op.cit, p162.

(12) M. Haofer: op.cit, T45, p127.

(13) Turbet-Delof: op.cit, p36.

(14) M. Haofer: op.cit, T23, p50.

- (15) P.Dan: "**Les Ullistres Captifs**", In, Revue Africaine, A. Jourdan, Libraire-Éditeur, Alger, V27, 1883, p205.
- (16) M. Haofer: op.cit, T12, p639.
- (17) Jean Gay: op.cit, p87.
- (18) M. Haofer: op.cit, T34, p957.
- (19) Jean Gay: op.cit, p44.
- (20) M. Haofer: op.cit, T41, p329.
- (21) Jean Gay: op.cit, p90.
- (22) Ibid, p86.
- (23) Turbet-Delof: op.cit, p115.
- (24) Jean Gay: op.cit, p86.
- (25) Turbet-Delof: op.cit, p215.
- (26) Jean Gay: op.cit, p87.
- (27) M. Haofer: op.cit, T36, p761.
- (28) Jean Gay: op.cit, p39.
- (29) M. Haofer: op.cit, T40, p94.
- (30) Turbet-Delof: op.cit, p250.
- (31) Jean Gay: op.cit, p89.
- (32) Ibid, p91.
- (33) Ibidem .

(34) ينبغي التنبيه إلى أن عائلة بيتي دو لأكروا تتكون من الجد والابن والحفيد، توارثوا كلهم وظيفة ترجمان الملك في البلاط الفرنسي. كما أنهم اهتموا بالتراث الشرقي، حيث قاموا بترجمة العديد من المؤلفات العربية والفارسية والتركية إلى اللغة الفرنسية. وهم: - الجد: بيتي فرانسوا (Petis François) (1622-1695م).

- الابن: بيتي دي لأكروا فرانسوا (Petis de La Croix François) (1653-1713م).

- الحفيد: بيتي دي لأكروا إسكندر (Petis de La Croix Alexandre) (1698-1751م).

(35) M. Haofer: op.cit, T39, p704.

(36) J. Caillé: "Auguste Beaumier", In, Revue Africaine, V96, 1952, p231, note 1.

(37) A. Jal: Dictionnaire critique de biographie et d'histoire, Henri Plan Imprimeur-Editeur, Paris, 1867, p301.

(38) R.P.Pierre Danne: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Pierre Rocolet Imprimeur et Libraire ordinaire de Roi, Paris, 1646, pp224-234.

(39) Jean Gay: op.cit, p86.

(40) M. Haofer: op.cit, T07, p227.

(41) Jean Gay: op.cit, p86.

(42) Ibid, p87.

(43) Turbet-Delof: op.cit, p273.

(44) M. Haofer: op.cit, T10, p188.

(45) Jean Gay: op.cit, p87.

(46) M. Haofer: op.cit, T29, p394.

(47) Jean Gay: op.cit, p43.

(48) Ibid, p45.

(49) Ibid, p88.

(50) يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص111.

(51) Jean Gay: op.cit, p39.

(52) هناك من يعتبر القرن التاسع عشر من الفترة المعاصرة وليس الحديثة، وقد ضمته لقرون العصر الحديث وذلك لعدة اعتبارات منها: تشابه الظروف السياسية للمغرب في هذا القرن مع القرون السابقة، وأيضا تشابه كتاب هذا القرن مع نظرائهم في قرون الفترة الحديثة من حيث الأسلوب ونظرتهم للمغرب، إضافة إلى أن أغلب مواضيع تلك الكتابات تتحدث عن تاريخ المغرب في العصر الحديث.

(53) Ellie de La Primaudaie: "Commerce et navigation de l'Algérie", In, Revue Algérienne et Coloniale, Juin1860, p473.

(54) Jean Gay: op.cit, p87.

(55) M. Haofer: op.cit, T37, p812.

(56) Jean Gay: op.cit, p91.

(57) M. Haofer: op.cit, T44, p944.

(58) Jean Gay: op.cit, p91.

(59) عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/ 16م، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006/1427، ص8.

(60) نجيب العقيلي: المستشرقون، 3 أجزاء، دار المعارف، القاهرة، 1980، ج1، ص210.

(61) نفسه، ج1، ص222.

(62) يحيى مراد: مرجع سبق ذكره، ص233.

(63) نجيب العقيلي: مرجع سبق ذكره، ج1، ص249.

(64) ليفي بروفنصال: مرجع سبق ذكره، ص20.

(65) Alain Messaoud: "Renseigner, enseigner. Les interprètes militaires et la constitution d'un premier corpus savant « algérien » (1830-1870)", In, Revue d'histoire du XIXe siècle, N:41, 2010, URL: <http://rh19.revues.org/index4049.html>. Consulté le 18 juin 2011, 00:15.

(66) نجيب العقيلي: المرجع السابق، ج1، ص202.

(67) J. Caillé: "Auguste Beaumier", In, Revue Africaine, V96, 1952, p231.

(68) شارل فيرو: الحوليات الليبية، تر: محمد عبد القادر الوافي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1994، ص14.

(69) L. Paysant: "Un président de la Société Historique Algérienne, Ch.Feraud", In, Revue Africaine, 1911, V55, p5.

(70) شارل فيرو: مرجع سبق ذكره، ص15.

(71) L. Paysant: op.cit, p15.